العوامل الاقتصادية والاجتماعية

في حدوث الجرائم

الاحتياجات الطبيعية

> وأشرف من ترى في الارض قدراً	يعيش العمر عبد فم و . . .

هذه كلمة ذهبية قالها الفيلسوف العربي الكبير ابو العلاء المعري وهي عامة لبني الانسان مهما سمت تربيتهم وتعالت في سلم الكمال صفاتهم . وهو انما يقصد بذلك فقدان الحرية المطلقة مادام هذا الانسان طوال حياته عبداً للاحتياجات الطبيعية وقد قال مثلها كثير من الحكماء ولكن قلما وجدت مثل هذه الصراحة في اقوال احد منهم . قال الحكيم الكبير الالماني « شيللر » : ان ماكنة العالم متحركة بالجوع والعشق . والحق ان هاتين الحالتين في الانسان كانتا ولا تزالان حتى الفناء من اهم بواعث الجدال في الحياة . ولسنا نقصد في بحثنا هذا ان نذكر اثر الجوع كفلسفة نظرية وانما نريد ان نتتبع هذا العامل في احداث الجرائم وكيفية تأثيره ولسنا نريد ان نأتي بهذا الصدد بفلسفة من عندنا بل نريد ان نستند في ذلك على بعض الاقوال المثبتة لعلماء الاجتماع في هذا العصر .

فاليك بعض مايتعلق بهذا البحث ملخصاً عن كتاب « الجرم والمجتمع » لمؤلفه « اندره لورداو » .

ان التزاحم في العالم الحيواني للسعي الكامل وراء تأمين حاجياته العضوية يكون دائماً معكوس النسبة شأنه في المجتمعات الانسانية مع وفرة المحصولات والسهولة الميسرة . فالفيران المحبوسة ضمن قفص

وجماعة يقتل بعضها بعضاً . والطيور الكاسرة تتقاتل بشدة من اجل صيد تخطفه . ويقول (لومبروزو) بان الكلاب التي تربي صغارها بنفسها كثيراً ما تصبح سارقة في سبيل اعاشتها . وهكذا السرقة في المجتمعات الانسانية فقد وجدت منذ القديم . وقد مضى حين من الدهر كان فيه جزاء السرقة والتجاوز على ملك الغير اشد من جزاء القتل والجنايات الاخرى عند بني الانسان . ولم تكن انواع التعذيب وآلام العقاب قادرة على تنقيص الجرائم في زمن ما . ومتى مارأيت تناقصاً في الجرائم فذلك الا من تحسن شرائط الحياة في المجتمع . ويقول الفيلسوف (سنيك) :

(ان الطريق الضيق هو سبب لاصطدام بعض المارين ببعض . وفي طريق عريضة ومنسقة تمر امة بأسرها دون ان يصطدم افرادها) فالتعقل والاخلاق وكل انواع التعذيب لايمكنها ان تقف في وجه مظاهرات احدى الاحتياجات العضوية . اذ انه يتحتم على كل مخلوق حي ان يقوم ببعض الحركات العضوية تأميناً لدوام حياته . فحرمانه من القيام بهذه الحركات من بواعث الشوق في روحه . وهذ الشوق يبدأ بشكل رغبة ضعيفة فتزداد بشدة . ثم يعقب هذه الشدة اندفاع اعمى يلقيه في هاوية الجريمة . وبالعكس اذا هو لم يتمكن من اخراج هذه الرغبة من حيز القوة الى الفعل تتولد عنده فكرة سوداء . فجنون مطبق ولا يمكن تسكين الاحتياج الطبيعي الا بتأمينه . وبالدرجة الاولى من التأثير بين هذه الاحتياجات العضوية المبرمة : الجوع والعطش حيث يصعب كل الصعوبة على الانسان ان يتحمل نصف هذه المؤثرات القاهرة . اذ تتلاشى ارادته تجاه هذه الاحتياجات . يقول العالم

(كاروفيقالو [illegible]) ماقولكم في رجل يموت جوعا بلا ذنب منه ، أيعد مسيئاً فيما لو سرق قطعة من الخبز ليستعين بها على ادامة حياته ؟ ثم ان الارقام التي استنتجها « ماكسيم دوكامب » من درسه حالة باريز اثبتت بان عدد الجرائم التي ارتكبت كانت تزداد وتنقص تبعاً لثمن الخبز . وقد ايدت جميع الاحصاآت صدق هذه الحقيقة . فاوقات الغلاء يصحبها دائما عدد كبير من السرقات . وان في زمن المجاعات الكبيرة في الهند يتضاعف عدد الجرائم . وفي تونكين تظهر عصابات اللصوص عندما تكون زراعة الارز غير مثمرة او معروضة لطغيان المياه . وهنالك المجاعة الاخيرة في روسيا حيث ولدت الرجوع لاكل لحم الادمي وقد وقع مثل هذه الجرائم في عدة اماكن وقبائل التوارق الذين يقطنون البلاد الغير مثمرة يصبحون بحكم الضرورة قطاع طريق .

ثم ان التأثيرات الجوية عمل كبير في المجتمع وفي نوع الجرائم التي تقع فيه . فالتجاوز على الملك يزيد في الشتاء اكثر من الصيف . وقد تحقق هذا الامر من نتيجة الاحصاآت التي ضبطت من تاريخ ١٨٢٧ الى ١٨٧٠ وقد تبين بان عدد الجرائم التي وقعت على الملك في الشتاء كانت ١٥ جريمة في حين لم يقع في الربيع الا ١١ وفي الصيف ٦ وفي الخريف ٥ جرائم . فهناك توازن جلي مابين الموسم والجرم وان ثمت فرق بين وفرة المواد المغذية والجدال الضروري من اجل تأمينها . واما الجرائم ضد الاشخاص فهي اكثر عددا في جنوب فرنسا بالنسبة الى شمالها وكذا في الولايات المتحدة فان الجرائم في الولايات الوسطى منها هي ١٥ مرة اكثر من الجرائم في الضواحي . واما التجاوز على العادات والاغتصاب فهو بكثرة زائدة في الصيف . وهما يتوافقان مع

اوقات الاخضرار الكثير . ويظهر ان الجرائم من الملامسة في الصيف يكون اكثر الما بالنسبة لغيره من المواسم وذلك لان الاحتياج حينئذ يكون اكثر تضييقا . ويقول المؤلف هل يرتكب المغتصب جرما مثل هذا فيما لو امكنه تأمينه بانتظام .

كل هذه المظالم توضح بان الجرم هو مثل بقية الحوادث الاخرى . تابع بصورة اضطرارية لنظام معين . وقد كتب احدهم يقول [وكم من بين هؤلاء الذين لا يسرقون لانهم غارقون في النعم من لو خلقوا فقراء لامتلأت بهم السجون] وقال آخر اتيح لي في مدة حياتي ان اتعرف على عدد كبير من المحكومين ولكني لم اكتشف من بينهم الا طبقتين من الناس . الطبقة الاولى كانوا مرضى . والاخرى .. اولاد .. واما هذه الطبقة المحكومة مهما تمكنت من النفوذ الى حالاتهم والى شخصياتهم كنت اقول في نفسي متسائلا هل لا كنت اصبح مثلهم فيما لو كنت في الظروف التي وجدوا بها .

يقول افلاطون الحكيم [ان حكومة يوجد فيها طبقات ليست بحكومة واحدة وانما تتشكل من حكومتين . الفقراء يشكلون الاولى والاغنياء يشكلون الثانية . والاثنان تعيشان معا ولكنهما تتبادلان المصادمة وبدون انقطاع : ان من دواعي الاجرام فقدان التربية ولكون الحكومة هي سيئة في عضويتها وفاسدة في تشكيلاتها .] وقال ارسطو [ان حالة العدد الكبير من بين الفقراء مما توجب الاسف وفوق الامكان منع مثل هؤلاء الناس من ان يصبحوا جناة .] وقال جان جاك روسو [ما اسعد تلك الامم التي يستطيع فيها الانسان ان يكون صالحا بدون عناء وعادلا بدون ان يكون له في عدله منة

ولا فضل . والحكومة التعيسة في العالم هي الحكومة التي لا يستطيع افرادها ان يعيشوا بدون ايقاع الشرور ويكونوا بسائق الضرورة مرائين محتالين . وعليه فليس هؤلاء هم المجرمون الذين يجب اعدامهم بل اعدام حكومتهم التي الجأتهم للوقوع بمثل هذه الجرائم .

وليست انتقادات العلماء المعاصرين بأقل من هذه الانتقادات المتقدمة . فقد قال (الدكتور [illegible]) ما معناه : [ان المجتمع الذي باهماله يساعد على التنزل الخلقي في طبقة من طبقات الناس ويسوقهم لحالات البؤس والشقاء هو مجتمع فاسد الاخلاق . كما ان المجتمع الذي لا يهيء الاسباب والوسائط الضرورية التي تساعد على ابراز المواهب الكامنة في افراده التي تدل كل واحد القسط الذي يستحقه في هذه الحياة هو مجتمع فاسد الاخلاق من هذه الوجهة ايضا]

وقال (دوغا) [قل ان يلجأ المجرمون الى السرقة . لانهم يسقطون في وهدة البؤس [illegible] فهم يثورون ضد التشكيلات الاقتصادية ناظرين اليها كانها السبب في الفقر] .

وقال (ده . . بيغري) في كتابه (علم الجرم) [الجرم هو ثمرة العضوية التي تساعده سواء كانت هذه العضوية الحكومة او المجتمع الاقتصادي او العائلة] . وقال الدكتور (توره) [ان السبب الاول في ايقاع الجرم من قبل الكثيرين ممن نسميهم بالمجرمين اعوزاهم لاعلى هذه الوسائط الضرورية التي لا يرتبط بها الانسان . [illegible] ايسد من هؤلاء المجرمين احتياجات ضرورية لا يمكن مقاومتها منهم] . وقال (البروفسور [illegible]) [لقد تمكن القول بان التمدن مزيد في التعقل والتفكير [illegible] مع التمدن [illegible] نوع الانسان فقد

او ينقص بنسبة وجود المواساة التي لا غنى لمجتمع عنها . وكلما كثر وجود الجزاء كثر سعد الناس . وكلما حسن وانتظم توزيع الجزاء كلما اصبحت الناس في حالة احسن » . ويقول (الدكتور قوربو) [يؤخذ البائس الجائع الذي يتعصب بسبب الاحتياج الملح في بلادنا كمجرم . واما في بلاد آنام وقضاتهم نسخة عن قضاة الصين ينظرون اليه كمخلوق وجبت عليه الشفقة . فيعفونه] وخلاصة ما يقول (فوروي) [كلما تحسن العدل الاجتماعي يتناقص عمل العدل الجزائي] . وهذا ما نعني عنه بقولنا (لو انصف الناس استراح القاضي) . ولكن هذا الانصاف يجب ان لايقتصر على الافراد من الناس تجاه بعضهم . بل يجب ان يتعداه الى المجتمعات فتكون التشكيلات الاجتماعية كلها مؤسسة على هذا الاساس فيشمل العائلة والوطن والانسانية وما يتبعها من الملاجئ الخيرية وكل ما يقتضيه هذا العصر من الحاجات للامم وبهذا تتجلى الحكمة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد قال (كه‌تله‌) مخاطباً الهيئة الاجتماعية باسم ماده (ليس عليكم الا ان تغيروا على مقتضى الحال والزمان هذا النظام الجائر وحينئذ ترون تغيراً متناسبا في الحوادث التي كانت تحدث تبعاً لهذا النظام . دعوني اتنفس هواء انقى . عدلوا الوسط الذى انا مضطر للعيش فيه . فهنالك تعطوني حياة جديدة . ان انظمتكم الحالية تجيز بل وتساعد على نصب الحبائل والاشراك في طريقي . ثم تضربوني اذا زلت بي القدم وسقطت فيها على انني لم اكتشفها . اليس من الواجب ان تسعوا لسد الحفر الموجودة في السبيل الذى انا مرغم على السير فيه . واقل ما في الامر ان تنيروا الى طريقي) .

هذا شأن حال الفقير تكون الى الاعتداء على المجتمع والحكومات وقد قال الشارع الاعظم كاد الفقر ان يكون كفرا . فاذا كان الفقر من اهم الدواعي والعوامل في تبديل العقيدة الدينية التي هي اعز شيء لدى الانسان حيث يخرج من نور الايمان الى ظلمة الكفر . فكيف لا يكون كذلك من عوامل الجرائم في هذا المجتمع . فسعيد ذلك الانسان الذي يعضده المجتمع فينقذه من براثن الكفر والفقر وسعيد ذلك المجتمع الذي يبنى من هذه النفوس المتحدة المتعاضدة المتكاتفة . حتى اذا ما اصيب احد اعضائه تألم له جميع جسم المجتمع وروحه .

[illegible]

نظم

احق بالصفع في الدنيا ثمانية   لا لوم في واحد منهم اذا صفعا
المستخف بسلطان له خطر   وداخل الدار تطفيلا بغير دعا
ومنفذ امره في غير منزله   وجالس مجلسا عن قدره ارتفعا
ومتحف بحديث غير سامعه   وداخل في حديث اثنين مندفعا
وطالب الخير ممن لا خلاق له   ومرتجي الفضل من اعدائه طمعا